

ماذا في «دروب الحرية»؟

بقلم موريس كرانستون
ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد

في مايو أفل بكثير مما في سارتر في روكنتان . (٤) حقا ان مايو -
شانه في هذا شان سارتر - مدرس فلسفة ثم يصبح جنديا ، بل كل
منهما أكثر من محارب ، لكن لا يوجد أي نطاق بينهما . وفي الواقع هناك
نوع من التهمك في الطريقة التي يجعل بها هذا المدرس للفلسفة أحد
المصابين بخداع الذات دون بقية شخصياته الاساسية .

عندما تبدأ الرواية ، تخبره عشيقته مارسيل أنها حامل ، ويمضي
الثماني والاربعين ساعة التالية يحاول أن يجد نفودا يدفعها من أجل
عملية الاجهاض . وهو يدقق للغاية حتى لا يدعها تذهب الى امرأة عجوز
فدرة تستعمل الطرق البدائية ، وهو كذلك مصمم ضد فكرة الزواج
بمارسيل حتى تنجب الطفل . ورغم أنه يحس بأنه شاخ وهو في الرابعة
والتلاثين ، فهو يعتقد ان الزواج سيقضي على حريته ، لانه يتصور نفسه
رجلا مستقلا للغاية . نقول له مارسيل ذات يوم : « أنت تريد أن تكون
حرا ، حرا حرية مطلقة . وتلك هي رذيلتك » . فيمضيق مايو ، لقد
شرح لها آراءه عن الحرية مئات المرات من قبل ، وهي تعلم أن هذا أحب
شيء لديه . لكنها تقول له ثانية : « تلك هي رذيلتك » .

ويسمع مايو عن طبيب يعد نجدة يمكنه أن يجري العملية مهابل
أربعة آلاف فرنك ، فيتوجه الى أناس مختلفين - أمه ، أصدفائه ، مكتب
القروض - مصمما على الحصول على النفود ، لكن باءت محاولته في
اقتراض المال بالفشل . وفي لسة تهكمية رائعة ، يجعل المؤلف أخا مايو
البورجوازي المتباهي المسمى جاك (وهو نموذج عند سارتر يمثل
« الخنزير ») يلفظ ببعض الحقائق الهامة . يقول جاك ل مايو : « لو كانت
بي آراؤك ، فسأزده نفسي عن طلب المعروف من شخص بورجوازي ملعون .
انني شخص بورجوازي ملعون ... وزيادة على ذلك أنت يا من تحتقر
الاسرة ، انما تقضي على الروابط الاسرية وأنت تقترض مني » . فيحاول
مايو أن يبرر نفسه :

يقول مايو : « أصغ الي ، فهنا سوء فهم ، أنا لا أعيا الا قليلا بما
إذا كنت بورجوازيا أم لا . كل ما أريد هو - « وهو ينطق الكلمات
الاخيرة من خلال أسنان مطبقة وفي نوع من الخجل - « أن أستسرد
حريتي » .

يقول جاك : « كنت أظن أن الحرية فائمة في المواجهة الصريحة
للمواقف التي ينفذ اليها المرء حامدا ، ويتقبل مسؤولياته ... وأنت
على أية حال ، قد بلغت سن الرشد يا عزيزي مايو المسكين » يقول هذا
في لهجة شفقة وتحذير : « لكنك تحاول أن تروغ من هذه الحقيقة للغاية،
أنت تحاول ان تتظاهر بأنك أصغر سنا مما أنت عليه . حسنا ... ربما
أكون قد ظلمتك ، وربما لا تكون في الواقع قد بلغت سن الرشد ، فهذه
السن سن أخلاقية ... ربما أكون أناقد بلقنتها أسرع مما بلغت أنت » .
وكما لو كان مايو يريد أن يبرهن على وجهة نظرة أخيه ، أخذ
يعزي نفسه بان ينغمس في صحبة الشباب الفاضل . فبدأ يخرج مع
فتاة روسية بيضاء في الثامنة عشرة ، اسمها بايقيش وأخيها بوريس
المصاب بداء السرقة ، وكان أحد تلاميذه . ولا تنفك يفتش تحاول ان
تجتاز امتحان الجامعة ، أما بوريس فهو سي التاسعة عشرة وهو أشد
ادراكا لشبابه وقد أغرته لولا وهن مغنية هرمة في ناد ليلى . وقد ذهب

تعد « دروب الحرية » (١) نوعا من الزخرفة ، يقصد بها اعطاء
صورة اجمالية لطرق الناس المختلفة للحرية، لكنها تروج بتنوع الاساليب،
هذا وقد تركها سارتر دون أن يتمها . وقد ظهر الجزءان الاول والثاني
« سن الرشد » و « وقف التنفيذ » عام ١٩٤٥ ، وظهر الجزء الثالث
« الحزن العميق » عام ١٩٤٩ ، وفي نوفمبر وديسمبر من السنة نفسها
نشر سارتر في مجلته « الازمنة الحديثة » فصلين عنوانهما : « صداقة
عجيبة » عن الجزء الاخير المنتظر . ثم أعلن سارتر بعد هذا أنه لن يكتب
فيها المزيد مطلقا .

ويمكن للجزء الاول « سن الرشد » أن يكون رواية قائمة بذاتها
وتكون كاملة . فيها بطل هو مايو أفصت به تجاربه المركزة في خلال
أيام قليلة من مجموعة اوهام عن الحرية الى مجموعة أخرى وكلها
سخيفة . أما الجزء الثاني « وقف التنفيذ » فهو نوع آخر من الرواية .
لقد أقام الرواية على نسق التنكيك « الواقعي » الأمريكي عن جون دوس
باسوس ، وهي محاولة لنقل تاريخ أسبوع ميونخ في فرنسا عن طريق
« مونتاج » لردود أفعال أناس مختلفين ، وهو يقطع بسرعة - وقد يكون
هذا أحيانا في الجملة نفسها - ما يقال وما يفكر فيه شخص من الأشخاص
الى ما يقال وما يفكر فيه شخص آخر ، وينتقل من الأشخاص الروائيين
أمثال مايو الى الناس الواقعيين أمثال شامبرلين ودالدييه . فاذا تذكرنا
ما قاله في « ما هو الادب ؟ » فانا ننتقل من « وعي انسان الى آخر » .
ومع هذا ففي الجزء الثالث « الحزن العميق » ينتقل المؤلف الى
التنكيك الأشد ، افناعا والذي نراه في « سن الرشد » لكي نركز
انتباهنا مرة أخرى على مصائر جماعة صغيرة من أصحاب النزعات
الخيالية . والشذرات المشورة من الجزء الرابع ناقص ليست الا
امتدادا للقسم الاخير من « الحزن العميق » .

لقد قلت ان مايو هو « بطل » الكتاب الاول ، لكن من الخطأ
الاعتقاد انه الشخصية التي يتعاطف معها أو يعجب بها سارتر بصفة
خاصة ، ولا يجب أن نظن نعتقد أنه شخصية تمثل سيرة حياة المؤلف .
لقد فعل النقاد هكذا ، فتجد الاستاذ شترن (٢) Stern يشير الى
« مايو - سارتر » وحتى الآنسة موردوخ تقول عن مايو : « مما لا شك
فيه انه صورة مصغرة من سارتر » (٣) . وفي الحقيقة ان ما في سارتر

* هذا الجزء اقتطعته من الفصل السابع من كتاب موريس
كرانستون : « سارتر » الذي ظهر لأول مرة عام ١٩٦٢ عن دار
Oliver & Bayed ضمن سلسلة « الكتاب والنقد » والذي أمل ان أصدر
ترجمته العربية قريبا .

(١) ظهرت الترجمة الكاملة للرواية عن دار الآداب من ترجمة للدكتور
سهيل ادريس ، وقد احتفظت بترجمته لعناوين الرواية . أما النصوص
داخل المقالة فهي من ترجمتي استنادا الى النصوص للترجمة السى
الانجليزية الواردة في تضاعيف الكتاب للدكتور .

(٢) سير المؤلف الى الفريد شترن في كتابه : « سارتر : فلسفته
وتحليله النفسي » (المترجم) .

Stern, A. : Sartre , His Philosophy & Psychoanalysis

(٣) كتاب اربيز موردوخ : « سارتر العقلي الرومانتي » Murdoch,
S. : Sartre, Romantic Rationalist . وقد ترجم محمود رجب الفضل
الخاص بدروب الحرية من لكتاب في مجلة الادب عددمارس ١٩٦٢ (المترجم)

(٤) بطل رواية سارتر الاولى : « العيان » (المترجم) .

الجميع الى ملهى ، فكانت صحبة من أربعة أشخاص تثير الشجن . وماتيو شغوف بان يؤكد حريته في حضور بايفيش ويردد أقوال « جيد » عن « الافعال المجانية » Actes Gratuits اي الاتيان بالافعال التي ليس لديه دافع مفعول لها كان يطلب الشمبانيا التي يكرهها وأن يفرز سكيناً في يده . وسارتر بالمثل يكشف عن سخف مثل هذه الافعال ، وخاصة سخف فكرة جيد من أن السلوك الذي من هذا النوع ليس بأية حال من الاحوال تأكيداً للحرية .

وذات صباح يأتي بوريس الى ماتيو وايفيش اللذين يجلسان في مقهى ، ويقول بان لولا قد ماتت وهي نائمة معه ، فهرب في هلع ، وهو الآن فلق بصدد استرداد الخطابات الغرامية التي كتبها لها . فيتطوع ماتيو أن يذهب من أجلهما . وبينما هو يتقرب في حقائق لولا يجد ماتيو بعض الاوراق النقدية . وهنا أخيراً يجد فرجا لدفع أجر عملية أجهاض مارسيل . لكن ماتيو يشك طويلاً في أن لولا لم تمت وإنما هي تحت تأثير مخدر ولسوف تستيقظ . وأخيراً تنتاب ماتيو حالة مسن الشجاعة ويرتد ثانية فيسرق النقود .

وفي الوقت نفسه كانت هناك تطورات أخرى . فان صديق ماتيو الخبيث المصاب بالجنسية المثلية دانيال قد رأى مارسيل وأثر فيها بأنها تريد الطفل حقاً . وهكذا عندما يظهر ماتيو في شقة مارسيل ومعه النقود من أجل عملية الأجهاض تشور ضمه وتطرده من الشقة . وقيل لماتيو الآن ان دانيال سوف يتزوج مارسيل . ودانيال مستعد أن يعترف ببنة طفل ماتيو على أنه طفله . وهو يؤكد لماتيو أنه رغم اصابته بالجنسية المثلية ، الا أنه سوف « يقوم بواجباته كزوج » .

وسرعان ما يجد ماتيو نفسه وحيداً فان ايفيش التي تحفره كثيراً كما تحفره مارسيل تفشل في امتحانها وتذهب الى الريف . ويتهي الجزء الاول بهذه الكلمات .

« راقب ماتيو دانيال وهو يختفي ، وفكر : « لقد بعيت وحيداً » . وحيداً لكنني أزداد حرية عن ذي قبل . لقد قال لنفسه في الامسية السالفة : « آه لو لم توجد مارسيل ! » لكنه وهو يقول هذا إنما كان يخدع نفسه : « لم يندخل مخلوق في حريتي ، لقد جففتها حياني » . واغلق النافذة وارند الى الحجر . ولا يزال عميق ايفيش يحوم في الهواء . استنشق الهواء وذكر هذا اليوم العاصف . « جمعة ولا طعن » .

هكذا فكر . لا شيء : لقد منحت له الحياة من أجل لا شيء ، أنه لا شيء ومع ذلك فان يتغير : انه كما خلق ... نتاب : لقد انهى بومه وكذلك انتهى من شبابه . لقد قدمت الاخلاقيات الحسنة المختلفة خدماتها له في خداع - الابيقورية الواعية ، التسامح عن طريق الابتسام ، الاذعان ، الحس المشترك ، الرواقية - قدمت له كل الماوانات التي يسلمها الانسان ، دقيقة بعد دقيقة ، كحكم فاس على فشل الحياة ... نتاب ثانية وهو يكرر لنفسه : « حقاً ، حقاً للغاية : لقد بلغت سن الرشد » .

وتبرهن حوادث الجزئين التاليين لانتهاء « سن الرشد » على أنها مليئة بالنهم . فلا يزال ماتيو يخدع نفسه ، لا يزال يبحث عن الحرية في أن يظل غير ملتزم ولا يزال يعتقد أنه « كما خلق » ، انه النظام ، هذا كل ما هناك ، ولم يعد أشد تعقلاً . وظل حائراً كالإبد . ف « يقرر » أن يذهب ليقابل في اسبانيا ، لكنه لا يذهب الى هناك مطلقاً ، وكان على وشك أن « يصاحج زوجة أخيه أوديت التي تحبه ، لكن أوراق تجنيده التي أرسلت أثناء أزمة ميونخ تستدعيه « في التو » . وعندما كان يعبر مركز نيف « يقرر » أن ينتحر ، لكنه يعدل عن قراره ويقول : « ربما في المرة القادمة » .

ويصل ماتيو الى فرقته ، وفي الجزء الثالث « الحزن العميق » الذي تدور حوادثه في مايو وبونيو عام ١٩٤٠ نجده في الجبهة . ويهجر

الضباط فرقتهم أثناء زحف الالمان ، والناس الذين دمروا أخلاقياً ولا يفكرون الا في العودة الى بيوتهم يسكرون وهم ينتظرون الهدنة . ثم

يبدو في القرية التي تعسكر فيها فرقة ماتيو فصيلة عسكرية من الطراز الاول في الآي شاسير . ولقد استهوت ماتيو وصديقاً له من العمال صفاتهم العسكرية فاستمالوهما لكي يسمحوا لهما بالالتحاق بالفرقة في برج كنيسة حيث يبذلون آخر محاولة للصمود في وجه العدو .

وهناك في البرج ، حيث قدر ان يقضي الالمان على ماتيو ، نجده وهو الذي لا يتائر ، أمامه ساعة أخيرة من العمل البطولي :

« لقد شق طريقه الى السور ، ووقف هناك يطلق النار . كان هذا انتقاماً على مستوى كبير . كل طلقة من طلقاته انما تنتقم لشك مسن شكوكه القديمة . « طلقة من أجل لولا التي لم أستطع أن أسرفها ، وطلقة من أجل مارسيل التي كان يجب أن أخلو بها ، وطلقة من أجل أوديت التي لم ارد ان اقبلها . وهذه الطلقة من أجل الكتب التي لم أجرؤ ان اكتبها وهذه من أجل الزهات التي لم أقم بها اطلاقاً ، وهذه من أجل كل واحد بصفة عامة ممن أردت أن أكرهه وحاولت أن أفهمه » . أطلق النار وكانت الاطواح تتكسر من حوله . سوف تحب جارك كحبك لنفسك - طلقة ! في وجه هذا اللوطي ، أنت لن تقتل - طلقة ! في خيال الآتة هذا المقابل . كان يطلق على الناس ، على الفضيلة ، على العالم كله . الحرية هي الرعب لقد كان رأسه ملتهباً . كانت الطلقات تنطلق حوله مرة في الهواء . « ان العالم يشتمل وكذلك أنا معه ... واستمر يطلق الرصاص . لقد اطلق الرصاص . لقد اغتسل . انه فوي للغاية ، انه حر » .

وربما يسيء الواحد منهم مقاصد سارتر عندما انتهى بماتيو الى هذه النهاية . ان الجو العام لهذا القسم من الرواية هو جزء « بطولي » تماماً . ان جبن أولئك الذين لا يريدون أن يقاتلوا . إنما يظهر من خلال عيون حادة وقحة . من الواضح أن الصفات العسكرية للآي قد ذكرت كموضع باعجاب ، وفي موت ماتيو هناك أثر خفيف فح من كلنج أو فيلم عن الحرب من أفلام هوليدو . وعلى أية حال كما أشار فيليب تودي ناقد سارتر الدقيق ، فان ماتيو ليس المقصود به أن يكون « بطل القتال الذي يصنع الخير » ، ان المقصود به أن يكون بجسيدا لما أسماه هيجل (الحرية المربعة) (١) ويموت ماتيو وهو « يبعد » أنه حر في النهاية ، لكن هذا الموت في عين المؤلف ليس الا آخر أخطاء ماتيو العديدة . فليس حقاً عند سارتر ان «الحرية هي الرعب» . وهكذا فان ماتيو الذي تأمل كثيراً في الحرية واهتم بها للغاية ، فد مات في شجاعة ، لكن دون أن يكشف حقاً ما هي الحرية .

أما البطل المحوري الآخر عند سارتر في « دروب الحرية » فهو دانيال ، وقد ترك المؤلف مشكلته الرئيسية دون حل . فدانيال لوطي . أو هو ليس لوطياً في عين نفسه ، انه لوطي في عيون الآخرين . فهو من جهة يريد أن ينكر جنسيته المثلية ويتظاهر بأنه مجرد شخص « مختلف » عن الآخرين . ومن جهة أخرى ، حيث أنه لا يستطيع أن يهرب من كونه يرى باعتباره شخصاً عنده جنسية مثلية ، وأن نظرة « الآخر » تجسده هكذا ، فهو يتوق أن يصبح جنسياً مثلياً كما يصبح الشيء المادي شيئاً ، وأن ينهي شعوره بالائم عن طريق التخلص من مشاعره جميعاً . فهو يتوق أن « يصبح حجراً ، بلا حركة ، بدون شعور ، أعمى ... أن يصبح لوطياً كما تكون شجرة الباوط شجرة بلوط . أن ينطفئ . أن يفلق عمقه

الداخلي » . لكن لا يتحقق حلم دانيال بطبيعة الحال . الوعي لا يمكن الا أن يكون وعياً ؟ الانسان لا يستطيع الا أن يكون ذاتية Subjectivity تغطياً Transcendence وجوداً لذاته .

وهكذا يسير دانيال في طريق حياة اللوطي الشاعر بالائم ، وهو يعاقب نفسه (لو أمكن استعمال هذا التعبير الفرويدى في تلخيص قصة سارترية) ويعاقب الآخرين . لكن جهود دانيال في معاقبة نفسه غير ذات أثر . لقد صمم على قتل القظط التي يجها ثم يعدل ، وهو يقدر أن يخصي نفسه ثم يعدل . وهو يمضي في زواجه بمارسيل (نكاية في

(١) مقبسة من كتاب فيليب تودي : جان بول سارتر ، دراسة أدبية وسياسية (المترجم)
Thody, P. : Y.P. Sartre, A Literary & Political Study

ماتيو) لكن وهو في شهر الصل معها ، يتمرد على جسدها الانشوي ، ويشير جسد ذكر شاب هو جسد بستاني ، فيتركها . ان اثم دانيال يعبر عن نفسه ايضا على شكل الحكم الشامل للملء بالفور على سلوك الناس الآخرين بما في ذلك رفاقه من أصحاب الجنسية المثلية .

وهناك منظر فريد في الصالون الذي يصور تكوين دانيال السوء من ناحية العقيدة والنظرية السارترية عن « النظر » . يذهب دانيال الى الصالون ولديه انية على انتفاء شاب من الشبان الذين يترددون هناك ، ينتقيه بنقوده . وبينما هو يفحص الفلمان في لستمانع ، يدخل رجل غريب مسن الى المكان ويكون صداقة سريعة مع أحدهم . فيشعر دانيال أنه « قد استشاط غضبا حارفا » ضد القادم الجديد ، ويقدر أن يعاقبه . فيقرر أن يتبعه عندما يرحل ، يتصور جمال الفكرة لو أصبح مخبرا ويستجوب الرجل عن اسمه « ويرده الى حالة من الفزع » وبينما هو يتلذذ بالفم الذي سيعانيه ضحيته ، يسمع أحدهم وهو يخاطبه من ورائه بأنه أحد عشاقه السابقين ، بوبي ، وكان يراقبه من غير أن يراه أحد . وعندما يصل اليه بوبي ، يستدير الرجل العجوز ويتطلع ، وعندما يرى دانيال واقفا هناك مع شاب فظ بجانبه ، يتنسم ابتسامة العارف . فيضطرب دانيال غضبا أكثر من ذي قبل . يقول دانيال لنفسه وهو أشد اضطرابا : « لقد حدث ورائي مع هذا الفلام واعتبرني مبتدئا » . ان دانيال يكره ما يسميه « ميولة الاخاء الماسوني » : « انه يتصور كسل واحد فيها . اني افضل ان اقتل نفسي في التو على ان ابدو كهذا اللوطي العجوز » .

ونحن نجد أن دانيال خلال نزعه السيئه يتحول الى المسيحية ، لكن دينه لا يكون الا مجرد تدليس ، شأنه في هذا شأنه في الزواج . ونأتي لحظة انتباهه أخيرا مع سقوط فرنسا . وعندما يعود الى باريس ويرى كل شخص تقريبا يهرب في ذعر أمام زحف الالمان ، يعيش دانيال تجربة فرح برضاء حقيق :

« لقد ظل عشرين سنة تحت المراقبة . لقد كان هناك جواسيس حتى تحت سريره . وكل عابر سبيل كان شاهدا على محاكمته ، كان فاضيا ، او كان الشخصين ، كل كلمة يقولها تستعمل كقريئة ضده . والا ، في لحظة - الهرب » .

ان الناس الذين حكموا على دانيال بأنه لوطي يبدون في حالسة هرب تام ، لقد انزاح عبء كبير عنه . لقد انهزم الآخرون . ويتنسم دانيال لرؤيته الجنود الالمان الملوحى الوجوه الايقين عندما تحملهم العربات الى الشوارع المهجورة . انه يتجول حتى نهر السين ، وهناك بالصدفة - يواجه شابا فرنسيا جميلا هو فيليب ، وهو من المسالمين المحظوظين ، وكان على وشك الانتحار . وقد أغرى دانيال فيليب عن طريق صبره اللوطي الطويل أن يغير رأيه ، وهو الآن يتألق بلا غم وفي أعماقه الوسائل الفنية القديمة لهتك العرض ، فيأخذ دانيال فيليب الى شفته ، ويستعد لزواله الجنسية المثلية معه وذلك عن طريق تعليمه كيف يكون حرا . ويسأله فيليب كيف يمكن أن يعلمه الحرية .

« قال دانيال وله مظهر المضطرب المرح : « يجب أن نبدأ باذابة القيم الخلقية . هل أنت طالب ؟

قال فيليب : « كنت طالبا » .

- القانون ؟

- كلا ، الآداب .

- هذا أفضل ، في هذه الحالة ستكون قادرا على فهم ما سأفعله

لك : الشك المنهجي - هل تبينت ما أعنيه ؟ « التحلل التعمد » الذي كان عند رامبو يجب أن نبدأ عملية تطعيم كاملة ، لكن لا عن طريق الاقوال ، بل عن طريق الأفعال . كل شيء اقتصرته من الآخرين سوف يتلاشى في الهواء » .

وهذا هو آخر ما نسمعه عن دانيال وفيليب ، لكن يمكن ان نفترض ان علاقتهما سوف تتطور وتنتهي كما تطورت وانتهت العلاقة بين لوسين الشاب وبرجر اللوطي في قصة سارتر القصيرة الاولى « طفولة زعيم » حيث أن تجربة البطل المصاب بالشذوذ لا تجعله يريد شيئا أكثر من أن يكون سويا ومن ثم ينتهي الى فاشي بورجوازي . ومرة أخرى ، يمكننا

ان نتيقن أن أي نوع من الحرية التي يمكن أن يتعلمها فيليب مسن دانيال ستكون سخرية أشد من أي شيء يعتقد ماتيو أنه قد أحرزه .

وبجانب دانيال وماتيو ، هناك شخصية تقوم في جزء من أجزاء « دروب الحرية » والتي يكون « طريقها للحرية » مهما للغاية ، رغم أن طريقها يبدو زائفا . هذه الشخصية هي برونيه ، وهو عضو متحمس مكرس حياته في الحزب الشيوعي . وهو من الناس الذين يعتقدون ان مشكلة الحرية تحل بالتحديد الماركسي للكلمة على أنها « التعرف على الضرورة » وفي اول الرواية يحاول برونيه أن يفري ماتيو على الالتحاق بالحزب الشيوعي . يقول له برونيه : « لقد نبتت كل شيء لتصبح حرا . خذ خطوة أبعد ، انبذ حريتك وسوف ينصاف كل شيء اليك » .

والسياسة بحر سهل عند برونيه أثناء سنوات الجبهة المتحدة ضد الفاشيست ، بل وحتى بعد تكوين الحلف النازي السوفييتي ، فهو يستمر يعتقد - دون تمحيص - في حكمة الزعماء الشيوعيين . انه كجندي يسمح لنفسه بأن يؤسر عى يد الجيش الالمانى الزاحف ، ثم يبدأ تنظيم خلية شيوعية في معسكر الاعتقال . ان ما يكرهه هو بحث الذات الفردية وعدم وجود دعامة عند الجندي الفرنسي المتوسط ، وهو لا يصبر على أن يبدأ الالمان ابادتهم حتى يمكن إعادة الروح المعادية للنازية .

ويلتق برونيه في معسكر الاعتقال بمثقف غامض اسمه شنيدر ، ويكون معه صداقة ، وهو شخص يبدو عليه أنه يعرف كل شيء عن الشيوعية ، وهو يحاول أن يحط من شأن عقيدة برونيه في قيادة الحزب . واكثر من ذلك ان تنبؤ شنيدر عن التطورات السياسية تحققها الاحداث . وعندما يتكشف مدى التحالف الروسي الالمانى ، وتعود جريدة « الاومانيتيه » الى الظهور بتصريح من النازي ، تصيح جثثع جهود برونيه في خلق حركة معادية للنازي في المعسكر . ويظهر لنا شنيدر على أنه فيكاربوس ، وهو كاتب شيوعي معروف للغاية تترك الحزب احتجاجا ضد التحالف النازي السوفييتي . ويبدل برونيه قصاره كي يتلاءم مع الخط الحزبي الجديد ، لكن ارتباطه العاطفي بشنيدر - فيكاربوس قد أصبح الآن عظيما حتى انه يقرر ان يشترك معه في الهرب . وهناك شيوعيون آخرون في المعسكر - على أية حال - يشون لسدى الالمان ، فيطلق الرصاص على فيكاربوس وهو يحاول أن يهرب . ويموت بين ذراعي برونيه :

« يقول فيكاربوس : « الحزب هو الذي اغتالني » .

غمغم برونيه : لينه لا يموت . لكنه يعرف أن فيكاربوس على وشك أن يموت ... لا توجد قوة للانسان تستطيع أن تواجه هذا المذاب المطلق . انه الحزب وقد قتله . حتى لو كسبت جبهة الانحداد السوفييتي ، فان الناس وحيدون . لقد تعلم برونيه المزيد ، لقد غاصت يده في شعر فيكاربوس القدر ، وصاح كما لو كان يريد أن يخفف الرعب ، كما لو كان في استطاعة رجلين ضائعين يمكن في اللحظة الاخيرة أن يقهرا الوحدة .

« الى الجحيم أيها الحزب ! انك أنت صديقي الوحيد »

فيكاربوس لم يسمع ... »

ان فيكاربوس ميت . وتتوقف الرواية وبرونه يرتد الى الحراس الالمان ، ويتأمل مدى اليأس الذي ينظره . ونحن نترك برونيه - كما نترك روكاتان - على حافة النجاة . لكننا لا نعرف شيئا عن مستقبله . وخلال الرواية حتى المنظر الاخير مع فيكاربوس ، يجسد برونيه - كما بين سارتر - نوع الانسان الذي هرب الى القيم الجاهزة للحزب الشيوعي كهرب من عذاب الاختيار الاخلاقي .

وهكذا يمكننا أن نقول عن رواية سارتر « دروب الحرية » التي لم تنته أنه ولا درب من « دروب الحرية » التي يسلكها أشخاصه العديدون في رأيه هو الطريق الصحيح ، رغم أن القارئ ربما تعلم شيئا عن طريق عملية معارضة واستبعاد هذا الاتجاه الذي يعتقد سارتر بالفعل أنه يقع فيه طريق الحرية .

ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد

القاهرة